المحاضرة الأولى:

سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية:

جرت بين الأندلس وإسبانيا النصرانية قبل سقوط غرناطة 1492م، عدة أحداث ومواجهات، أخذت هذه المواجهات عدة أشكال أبرزها الطابع الصليبي، الذي حملت رايته في عديد المناسبات، وليس من الضروري أن يقتصر معنى الحروب الصليبية على تعدد الجهات التي ترد منها الجيوش لتتجمع في حرب ضد المسلمين، لكنها حتى لو كانت جبهة واحدة فهي تحمل هذه الروح ويهدف بها الحرب التي لا هدف لها ولا مبرر، وعلى شكل من القسوة والإفناء الشامل.

فقد تخللت المدة التي سبقت عصر ملوك الطوائف أحداث ومصادمات، تكونت فيها إسبانيا النصرانية في دور المهاجم ضد الأندلس، رغم وجود معاهدات ومواثيق معها، ولكنها في أغلب الأحيان تنتهي بالعودة السريعة إلى سابق العهود، وكانت إسبانيا النصرانية طوال تلك الفترة في موقف الضعيف رغم اتحادها ضد الأندلس.

أما في عهد ملوك الطوائف فقد تفككت الأندلس مما عجل بظهور قوة اسبانيا النصرانية التي نالت من الأندلس بضعفها أكثر مما نالت منها بقوتها، لكن المرابطين والموحدين كانوا قد حافظوا على بقاء الأندلس حتى قامت غرناطة مملكة صغيرة منزوية في الركن الجنوبي لشبه الجزيرة الأندلسية، لكن اسبانيا النصرانية بعد قيام غرناطة كانت معها في صراع أعنف وأكثر وضوحا بالنسبة لمسلمي غرناطة حتى تمكن الملكين الكاثوليكيين فرناندوا الخامس وإيزابيلا مملكة قشتالة من إسقاط مملكة غرناطة سنة 1492 بعد صراع طويل.

1-أسباب سقوط غرناطة 1492م:

-لعل أحد أهم الأسباب التي أدّت إلى سقوط الجزيرة الاندلسية عامة وغرناطة خاصة هي ضعف الوازع الديني والروحي لدى أهلها وقادتها، فرغم التفوق العلمي والمعماري والحضاري، إلاّ أن فقدان الحافز الديني والاهتمام المفرط بالماديات جعل الموت والدفاع المستميت عن المدينة لا حافز له، فحب الحياة استولى على حب الموت لأجل أمر جلل ما بعد الحياة.

-إحتلال جميع الأراضي الأندلسية وبقاء غرناطة معزولة، ففي الوقت الذي كانت فيه القوة المسيحية تتقوى وتتوحد بالاحتلال تلو الآخر، كانت الدولة الاسلامية تتفكك تدريجيا إلى أن بقية غرناطة معزولة ومتفردة.

-التوقف عن المقاومة واتخاذ سبيل المهادنة ودفع الضريبة، جعل الجيش خاملا وغير مستعد للحرب، بالإضافة إلى انّه أدى إلى استيلاء الحلف المسيحي على القلاع والأراضي المتاخمة للمدينة، وهكذا حوصرت المدينة، ما أدى لاحقا إلى استيلاء

الإسبان على الحدود المتاخمة لغرناطة حيث شكلت سنوات 1478 و1479م و 1480 استلاء قشتالة وأراغون على الكثير من القلاع وتجاوز الحدود المعترف بها سابقا.

-التشتت الداخلي والصراعات لأجل السلطة، ففي الوقت الذي تحالف فيه ملك قشتالة وأراغون ضدّ مسلمي غرناطة دخلت غرناطة في حقبة من التشتت والتمزق استفاد منها الاسبان.

-كان للنساء دور في تغذية هذا الشقاق والخلاف، حيث تزوج أبو الحسن أواخر حكمه فتاة نصرانية تدعى إزابيل دي سوليس أو كما تسميها المصادر العربية ثريا الروميةّ، كانت قد أسرت في إحدى الحروب، وهي ابنة أحد القادة الاسبان المعروفين، حيث أنجبت له ثلاث أطفال تنصر اثنان منهما بعد سقوط غرناطة، وأخذا اسمي فرناندو وخوان، كما أن أمهما عادت إلى نصرانيتها الأولى، حيث لعبت دورا بارزا في إسقاط المملكة، وتأليب الملك أبو الحسن على أبنائه من زوجته الأولى عائشة الحرّة، إلى أن وصل الامر بالملك إلى سجن زوجته عائشة في أحد الأبراج، ومحاولته التخلص من ابنه أبو عبد الله محمد الثاني عشر، ففرت عائشة من القصر ومعها أولادها فبايعها الشعب الغرناطي، وهكذا انشق المجتمع إلى جبهتين متقاتلتين.

ولم يتوقف هذا النوع من الزواج عند الأمير وحده فقط، بل تعداه إلى حاشيته وساكنة المدينة، فتزوج الكثيرون من النصرانيات، ومن حاشية السلطان الذين تزوجوا من النصرانيات، وهكذا ظهر جيل جديد عرف بالمولودين، حيث تأثر هؤلاء المولودين الجدد بدين ونمط حياة أمهاتهم المسيحيّة.

لعلّ أيضا من الأسباب التي ساهمت في بداية تآكل وسقوط الأندلس هو عملية التدجين التي اتخذتها السلطات الإسبانية ضد أولئك الباقين من المسلمين بعد احتلال أراضيهم، حيث كسب الطرف الإسباني جانبهم سواء من خلال ترغيبهم والابقاء على ممتلكاتهم أو ترهيبهم من خلال إلزامهم باعتناق النصرانية، وكان لهذا التحييد دور بارز في عدم توحد العامة المسلمة ضد التحالف النصراني.

2-سقوط غرناطة سنة 1492م:

شهدت فترة إتحاد إسبانيا النصرانية عملية إصلاح واسعة، انعكاسا لطموح إيزابيلا في بناء مملكة قوية، وما كانت لتكتمل دون إخراج الأندلسيين من غرناطة أو القضاء على وجودهم السياسي فيها، لذلك عملت إيزابيلا رفقة فرديناند على استغلال الخلاف بين أفراد الأسرة المالكة في غرناطة، والذي وقع بين العم وابن أخيه أي بين محمد بن سعد (الزغل) وابن اخيه محمد بن علي الملقب بأبي عبد الله الصغير، حيث قسمت المملكة فيما بين الأميرين على أساس أن هذا الإجراء

كان ضروريا، فكان للزغل غرناطة ومالقة والمرية واقليم البشرات، بينما كان لأبي عبد الله الصغير حي البيازين وما تبقى من ذلك إلى إقليم مرسية الذي كان على حدود الولايات المسيحية.

وما يهمنا هنا أن فرديناند وايزابيلا استغلا الخلاف القائم في غرناطة وحركا آلة الحرب مرة أخرى ضد الأندلسيين، بعد أكثر من قرنين من الخمول النسبي للحرب بين الجانبين وامتدت الحرب هذه عقدا كاملا من الزمن أي بين 1481م و1491م وبدأت باحتلال المدن الرئيسية في مملكة غرناطة، وفرض حالة الحصار بالتعاون مع أساطيل البرتغال وايطاليا لمنع حدوث الإمدادات التي قد تصل من الشمال الإفريقي إلى المملكة.

ولم تكن هاته المعارك قارة ومستقرة وإنما عبارة عن مجموعة معارك تندلع في الربيع وتتوقف في الشتاء، وحتما فإن المشاكل الداخلية قد أثرت بشكل واضح على المدينة في النهاية، ففي الوقت الذي كان من الجدير بالسلطة ومعارضيها تبني اتحاد داخلي، وتوجيه صراعاتهم إلى الخارج، رضخوا إلى الاستكانة والهوان وقاموا بقبول الضريبة التي فرضت عليهم من قبل الكاستيل.

وكان التوسع الاسباني حالة طبيعة خاصة مع وجود ملكين متعصبين للمذهب الكاثوليكي مثل الملك فيرديناند والملكة إليزابيث، فراسلا الملك الغرناطي أبي عبد الله محمد بن علي يطلبان منه تسليم واد آش وألميرية على أن يبقى حاكما على غرناطة، شرط أن يكون خاضعا وتابعا لهما سياسيا، فرفض أعيان ووجهاء وقادة وجنود المدينة فكرة الاستسلام ودعوا إلى المقاومة، وأمام هذا الحماس أبلغ عبد الله الملك الاسباني برفض عرضه، وتمكن المسلمون من تحقيق عدد من الانتصارات ضد النصارى، حتى أنهم توسعوا في المناطق المجاورة واستعادوا بعض القلاع والقرى،و قد ساعدهما في المعارك استخدام المدفعية أمام بدائية أسلحة.

ولا يزال هناك اختلاف بين المؤرخين حول التاريخ الفعلي لاحتلال مدينة غرناطة، ويبدو أن مرحلة الاحتلال مرّت عبر مراحل خلال الفترة بين 1 - 6 سبتمبر سنة 1492 م، وكان الدخول إلى المدينة وفق ما أوردته التسجيلات الاسبانية دخولا سريا.

3-انعكاسات سقوط غرناطة 1492م:

-ما إن سقطت غرناطة عام 1492 م حتى بدأ سيل الرسائل ينزل على الملكين إليزابيث وفيرديناند من كلّ صوب وحدب من الممالك المسيحية، في حين رأى فيه العالم الإسلامي هذا السقوط نكسة أستهم الفتح العثماني للقسطنطينية سنة 1452م.

-لعل أوّل ما تبع السقوط هو بداية إلحاق غرناطة بالإرث والفكر المسيحي، حيث عيّن بعد الاحتلال مباشرة الكونت دي تينديا حاكما وهيرناندو دي تافيرا أسقفا على المدينة وكلاهما رجلان متعصبان، وأول أمر قاما به هو تحويل أكبر مساجد غرناطة إلى كاتدرائية.

ورافق إعادة تحويل المساجد إلى كنائس إجبار المسلمين واليهود على اعتناق المسيحية، حيث أنّه "وبحلول سنة 1501م كان كل يهود الجزيرة الإيبيرية قد اعتنقوا المسيحية، في حين أجبر المسلمون على التنصر أو التهجير، فبحلول سنة م كانت فكرة تنصير المسيحيين قد عمّت كل أرجاء إسبانيا، أين خصص في هاته السنة مراقبون في كل المدن الاسبانية مهمتهم ملاحظة سير عملية التنصير.

وتولّت عملية محاكمة المسلمين الذين بقوا على دين الإسلام محكمة التفتيش التي أسست سنة 1478، والتي لا تزال إلى يومنا هذا عار على الكنيسة الكاثوليكية، حيث ذهب البعض إلى أنّها قتلت منذ تأسيسها وإلى غاية تعطيل نشاطها 5 ملايين.

ثم بدأت سياسة الإضطهاد لمسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المدجنين أي (المسلمين في مواطنهم تحت حكم النصارى)، وقد ثار هؤلاء المسلمون على تلك المعاملة عديد المرات، ولكن الأمر انتهى بطردهم من خلال عدة مراحل.

أما فيما يخص تعداد من هاجر من الأندلسيين إلى بلدان المغرب العربي، واتجاه هجراتهم، فنجد ذلك بشكل مفصل في كتاب "نبذة العصر" لمجهول، حيث يبين أن أهل مالقة خرجوا في ثلاثة أيام إلى باديس، وخرج أهل ألمريبة في نصف يوم إلى تلمسان، وخرج أهل الجزيرة الخضراء في نصف يوم إلى طنجة، وممن خرج إلى الج ا زئر وتونس أهل دانية وأهل جزيرة صقلية، وخرج ما بقي من أهل غرناطة في خمس عشر يوما إلى بجاية ووهران.

وبعد التهجير الجماعي الذي طال مسلمي الأندلس، نزحت أعدادا كبيرة منهم إلى شمال إفريقيا، وحدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي، هي في واقع الأمر امتداد لأزمات شهدتها بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين.

والحاصل أن دولة الموحدين في أيامها الأخيرة، قامت على أنقاضها ثلاث دول صغيرة تقاسمت فيما بينها الملك على بلاد المغرب: فالحفصيون في تونس (المغرب الأدنى) والزيانيون في المغرب الأوسط (الجزائر) أما المرنيون ففي مراكش (المغرب الأقصى)، ولعل التنافس الشديد بين هذه الدول والتنازع الكبير على السيادة وإرث دولة الموحدين، هو الذي دفع الدول الكاثوليكية الأوربية في شبه الجزيرة الأيبيرية- بعد انتصارها على المسلمين بإسقاطها لآخر إمارة لهم بغرناطة عام 1492م - لتفكير جليا في الزحف نحو بلاد المغرب.

فكانت هذه الحملات تحمل الطابع الصليبي، بداية من تدخل البابا وفق معاهدة ثوردي سيلاس سنة 1495 والتي تقتسم منطقة المغرب العربي بين إسبانيا والبرتغال. وتحقق ذلك بعد اتحاد مملكتي قشتالة وأرغونة في أواخر القرن 15م، وكان هذا الاتحاد بداية فصل من فصول حروب الاسترداد؛ التي كانت الدول الكاثوليكية الأوربية قد بدأتها منذ زمن بعيد، في محاولة منها لاستعادة أمجاد الإمبراطوريات القديمة، تدفعهم في ذلك جملة من الأسباب المختلفة سياسية واقتصادية ودينية وحربية.

على أن التعصب الديني والروح الصليبية والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين وإرادة محاربة الإسلام ودحره، كان مجتمعا بقوة لديها، وهو ما دفع بهذه القوى أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر، إلى التدخل في الغزو البلاد الإسلامية بالشمال الإفريقي. وإلى جانب هذه الصبغة الدينية الحادة، فإن الإسبان لم يستطيعوا التخلص من احتلال العرب لبلادهم إلا بعد كفاح طويل وعنيف، ذاقوا من خلاله الأمرين، دام قرابة ثمانمائة سنة.

وهكذا يتحول الصراع الصليبي الإسلامي من بلاد الأندلس إلى شمال إفريقيا وعلى الخصوص الجزائر وتونس، حيث سعى الأوربيون من خلال هذا الصراع إلى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، بداية من احتلال العديد من المناطق في بلاد المغرب على غرار وهران 1509 والمرسى الكبير 1505، وبجاية 1510 في المغرب الأوسط، وطرابلس الغرب 1510، كما اضرت الكثير من المدن الساحلية الجزائرية

إلى دفع الضرائب وإعلان الولاء للإسبان، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد توسع البرتغاليون والاسبان إلى أن وصلوا البحر الأحمر والمشرق العربي.

أما في الجانب الاقتصادي وخاصة التجارة، فقد تراجع النشاط التجاري على مستوى الموانئ المغاربية والتي كانت همزة وصل بينها والأندلس وهذا ما أدى إلى الضعف الاقتصادي.

وعلى خطى الاسبان سارت البرتغال في ص ارعها مع دول المغرب الإسلامي ،فمثلا عدائها للمغرب الأقصى بعد مقتل السلطان أبو عنان فارس، اتسم بالصبغة الدينية، هذا بالإضافة إلى الأطماع التجارية، ناهيك على أن الغزو البرتغالي لبلاد المغرب ما هو إلا امتداد للحروب الاسترداد، أضف إلى ذلك الرغبة في التخلص من القرصنة المغربية، مع العلم أن دولة بني مرين في المغرب كانت أحسن حالا من الدولتين (الزيانية والحفصية) من حيث قوتها واستقرارها، غير أن قربها من الأندلس جعلها في وجه الأخطار المحدقة التي عرفتها الأندلس لاسيما منذ القرن 15م.